عبد القادر الحسيني

1908 - 1948

عبد القادر الحسيني هو واحد من أوائل الذين شاركوا في الثورة الفلسطينية التي امتدت من عام 1936 حتى عام 1939. وقد حوّلته مشاركته في الثورة منذ بداياتها واستشهاده في عام 1948 في معركة القسطل إلى أحد الرموز الكبيرة للشعب الفلسطيني في كفاحه من أجل الحرية.

ولد عبد القادر الحسيني في عام 1908. واختلفت المصادر في تحديد مكان ولادته بين اسطمبول حيث كان والده يقيم بصفته عضواً في مجلس المبعوثان والقدس مسقط رأس آبائه وأجداده. والده هو موسى كاظم الحسيني. وكان له دور كبير في الحركة الوطنية الفلسطينية في مواجهة الإنتداب البريطاني والحركة الصهيونية. واستمر في كفاحه الوطني حتى وفاته في عام 1934.

ورغم أن موسى كاظم الحسيني والد عبد القادر يوصف باعتباره الأب الجليل "للحركة الوطنية الفلسطينية" منذ أوائل العشرينات حتى وفاته في عام 1934، إلا أن القطب الأبرز في العائلة كان الحاج أمين الحسيني. نشأ عبد القادر منذ نعومة أظفاره في بيت من بيوتات فلسطين الكبرى. الأمر الذي أتاح له الفرصة لتحقيق قدر كبير من التعليم والمشاركة في القيادة الفلسطينية من داخلها. فقد كان والده قائمقاماً ومتصرفاً في عدد من المدن الفلسطينية والعربية إبان الحكم العثماني. وظل كذلك إلى أن أحيل إلى التقاعد في عام 1914. ومع بداية الإحتلال البريطاني لفلسطين تسلم موسى كاظم الحسيني رئاسة بلدية القدس بدلاً من شقيقه المتوفي حسين سليم الحسيني. وبحسب المصادر فقد اشترطت عليه سلطات الإحتلال ألا يشتغل في السياسة. لكنه لم يتقيد بذلك. فاستقال من رئاسة البلدية في عام 1920. وقاد في شهر آذار من ذلك العام مظاهرات ضخمة كانت تطالب بانضمام فلسطين إلى سوريا وتهاجم الإستعمار الصهيوني. في ذلك الوقت كان عبد القادر ما يزال فتى صغيراً. وقد مكنه انتماؤه

إلى أسرة ذات نفوذ من نهل العلم والمعرفة من أفضل ينابيعهما. أنهى عبد القادر دراسته في روضة المعارف، ثم في مدرسة صهيون في القدس. وهي مدرسة تبشيرية انجليزية أنشئت في العهد العثماني. في تلك المدرسة نال عبد القادر في عام 1927 الشهادة التي تؤهله للإنتساب إلى الجامعة. فذهب أولاً إلى لبنان لينتسب إلى الجامعة الأميركية. لكنه لم يبق سوى عام واحد إذ طردته الجامعة بسبب نشاطه السياسي. فانتقل إلى القاهرة لمتابعة دراسته في الجامعة الأميركية. وأقام خلال دراسته علاقة وثيقة بالحركة الوطنية المصرية من خلال حزب الوفد. ثم أسس مع زملائه من الطلاب الفلسطينيين أول رابطة لهم في مصر. وكان هو أول رئيس لتلك الرابطة التي صارت فيما بعد مركزاً مهماً من مراكز العمل الفلسطيني. وتعاقب على رئاستها آخرون كان في مقدمتهم الطالب الشيوعي عزمي الناظر. ثم تبعه ياسر عرفات. تخرج عبد القادر من الجامعة الأميركية في عام 1932. وألقى خلال تخرجه كلمة هاجم فيها الإستعمار الأميركي منبهاً إلى خطورة الدور السياسي الذي تمارسه الجامعة الاميركية ذاتها. وتوجه بصوت عال إلى رئيس الجامعة قائلاً: "هذه شهادتكم فخذوها، فإني لفي غنى عنها، وأنه ليس مما يشرّفني أن أحملها أو أنتسب إليها، ... أنا لست بحاجة إلى شهادة من معهدكم الاستعماري التبشيري ...". وردت عليه الجامعة بسحب شهادته والإيعاز إلى حكومة إسماعيل صدقي بطرده. وتم ترحيله إلى فلسطين في شهر تموز من عام 1932. وكان آنذاك في الثانية والعشرين من عمره.

في عام 1933 تسلم عبد القادر في فلسطين وظيفة مأمور في دائرة تسوية الأراضي. وكان ذلك العام بداية مرحلة خطيرة في تاريخ فلسطين. إذ بدأت الهجرة اليهودية تتخذ طابعاً جماهيرياً في أعقاب وصول هتلر إلى السلطة في ألمانيا وإعلانه موقفاً عنصرياً معادياً لليهود. وأصبحت تواجه الحركة الوطنية الفلسطينية مهمتان مترابطتان ضد الإنتداب البريطاني وضد الهجرة اليهودية. وكانت العصابات الصهيونية قد بدأت تستولي على الأراضي بوسائل مختلفة

لاستقبال المهاجرين. كما كانت تتسلح للدفاع عن مشروعها في إقامة دولة لليهود على أرض فلسطين. وكانت تساعدها وتهيئ لها الإمكانيات في ذلك سلطة الإنتداب البريطاني. يقول فيصل دراج في هذا الصدد في دراسة له عن الحسيني: "حرص الاستعمار الانجليزي، في فلسطين كما في غيرها من البلدان المستعمرة، على إلحاق المثقفين بالجهاز الحكومي، بخاصة هؤلاء المنتمون منهم إلى العائلات الحسيبة. كان يسعى من وراء ذلك إلى تحسين أداء الجهاز الحكومي، وإلى تعطيل الدور الوطني للمثقفين، وفقاً لقاعدة مقايضة المعرفة بالمصلحة والوجاهة الاجتماعية، وبقدر ما كان يعمل على تأكيد صورة المثقفين المتعاونين، المنحدرين من عائلات شهيرة، مثالاً على الجميع أن يحاكيه ويقلّده. ولهذا عرض المندوب السامي على عبد القادر الحسيني أكثر من وظيفة، إلى أن أقنعه بوظيفة كبيرة في "إدارة تسوية الأراضي"، دون أن يعرف "المندوب" أن لعبد القادر غايات ترتبط بالتزامه الوطني، هي التي دفعته إلى قبول "الوظيفة الكبيرة". فقد أراد المسؤول الإنجليزي إبعاد الشاب المتعلم عن السياسة، ومصادرة تمرده بمنافع سلطوية، ووضعه تحت "المراقبة الإدارية" وتفتيت مصداقيته. وكان لعبد القادر، المنحدر من عائلة ميسورة لا تنقصها الوجاهة، أهداف أخرى عنوانها الأكبر الوقوف على سياسة الاستيطان الصهيوني الذي يسهّله القائمون على شؤون الانتداب، والتعرّف على قضايا الفلاحين ومشاكل حياتهم والحوار معهم وكسب ثقتهم، والنفاذ إلى هواجس الكتلة الأكبر من الشعب الفلسطيني، التي ستلعب دوراً قتالياً رائداً في ثورة 1936. وبسبب هذا كله، تدخلت الوكالة اليهودية لدى حكومة الانتداب، ونقل من موقع حيوي إلى عمل هامشي، رد عليه بتقديم استقالته في 19 نيسان 1936، عام صعود الثورة الوطنية".

وكانت قد تشكلت بعض الأحزاب في الفترة التي سبقت ورافقت قيام الثورة وضعت أمامها مهمة البحث عن الطريق الذي يقود إلى إقامة الدولة المستقلة على أرض فلسطين والإسراع في التحرر من الإنتداب البريطاني ومواجهة المد الصهيوني قبل أن يستفحل أمره. وكان الحزب الذي أسسه الحسينيون وأعطوه اسم "الحزب العربي الفلسطيني" من أبرز تلك الأحزاب التي تأسست. وكان الحاج أمين الحسيني هو زعيم الحزب. وتم الإعلان عن ذلك الحزب في ربيع عام 1935 وأسندت رئاسته إلى جمال الحسيني. وجد عبد القادر الحسيني نفسه تلقائياً في صفوف ذلك الحزب. إلا أن صغر سنه لم يؤهله آنذاك لتولي منصب كبير في حزب حرص مؤسسوه أن يضم في قيادته شخصيات وطنية معروفة. فأوكلت إليه إدارة مكتب الحزب في القدس. وساهم في تحرير جريدة اللواء التي أصدرها الحزب في عام تأسيسه.

مارس عبد القادر الحسيني دوره في الكفاح داخل الحزب وخارجه مع الجماهير وفي غمار العمل المسلح. كما ساهم في العمل الصحفي في عدة صحف ومجلات. وإذ اختار الحاج أمين الحسيني زعيم العائلة وزعيم الحزب العمل السياسي، فقد قرر عبد القادر أن يستمر في الكفاح على طريقته في العمل المسلح. لكنه اضطر في عام 1938 إلى الذهاب تسللاً إلى دمشق للعلاج. وفي حين اختار الحاج أمين الحسيني وعدد آخر من القيادات الفلسطينية العمل من خارج فلسطين فقد ظل عبد القادر يدخل إلى فلسطين ويخرج منها لمهمات متعددة سياسية وعسكرية إلى أن انتهت الثورة في أواخر عام 1939 بالهزيمة. بعد هزيمة الثورة لجأ عبد القادر الحسيني إلى بغداد. وسرعان ما وجد نفسه جندياً مقاتلاً في

صفوف حركة رشيد عالي الكيلاني التي قامت في عام 1941 ضد البريطانيين وتم القضاء عليها في المهد. وكان عبد القادر قبل ذلك قد عمل في بغداد مدرساً للرياضيات في المدرسة العسكرية وفي إحدى المدارس المتوسطة. ثم التحق بدورة ضابط احتياط في الكلية العسكرية. بعد فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني غادر عبد القادر العراق سراً إلى تركيا ومنها إلى إيران ثم إلى ألمانيا. بعد أن أمضى ستة أشهر في برلين لدراسة فن المتفجرات عاد إلى بغداد عن طريق إيران. ويذكر عنه أنه قطع مسافة ألف كيلومتر مشياً على الأقدام. وقال في نهاية الطريق "جحيم بغداد ولا نعيم إيران". ومعروف أن الحاج أمين الحسيني كان قد أقام مع الألمان علاقة سياسية استناداً إلى ما كان قد تهيأ له من أن هتلر المعادي لليهود وزعيم المحور في الحرب ضد الحلفاء سيكون نصيراً للفلسطينيين في نضالهم ضد الحركة الصهيونية وضد البريطانيين. لكن عبد القادر لم يبق طويلاً في برلين. فعاد إلى العراق وواجهه القرار بالإقامة الجبرية أولاً ثم بالسجن مع سائر المجاهدين الفلسطينيين الذين كانوا يقيمون في العراق في ذلك الحين بالإتفاق مع الحاج أمين الحسيني. ثم أفرج عنه في عام 1944 بتدخل من الملك عبد العزيز آل سعود وانتقل إلى السعودية. ومن السعودية ذهب ثانية إلى ألمانيا. ثم عاد بعدها إلى السعودية وأقام فيها عامين. وفي عام 1946 ذهب إلى مصر. وأقام فيها علاقة مع حزب "مصر الفتاة" الذي عرف بعلاقته مع هتلر وبنزعته الشوفينية. مارس عبد القادر في مصر نشاطاً سياسياً باسم القضية الفسطينية عرّضه للملاحقات. لكنه بدأ يعد نفسه لمرحلة جديدة من النضال في أعقاب قرار التقسيم في عام 1947. وما أن قررت الدول العربية الدخول في الحرب لمنع تطبيق قرار التقسيم حتى وجد نفسه أمام مهمة كفاحية جديدة يستكمل فيها مهمته السابقة في ثورة عام 1936. فبدأ يجمع السلاح ويعد نفسه للقتال على أرض فلسطين. فذهب إلى دمشق. حين وصل إلى وزارة الدفاع السورية في عام 1948، التقى في صباح الرابع من شهر نيسان اللواء طه الهاشمي، المفتش العام لجيش الإنقاذ وقال له: "لقد

رأيت مخازن اللجنة العسكرية المليئة بالعتاد والأسلحة، فإذا أعطيتم اليوم ما أطلبه من السلاح والعتاد، فإنني قادر على تحقيق أهدافي...". غير أن جواب اللواء العراقي ممثّل الجامعة العربية جاء حاسماً: "ولكن هذه الأسلحة تخص جيش الإنقاذ". فردّ عليه الحسيني: "ولكن أين هو جيش الإنقاذ، وهل اشترك في أية معركة حتى الآن؟ نحن نريد واحداً بالمائة من الأسلحة التي تقدمونها لهذا الجيش. أولستم قادتنا الذين عهدتم إلينا بتنظيم القوى الشعبية ومقاومة اليهود؟ فلماذا تمنعون عنا كل عون أو مساعدة؟... إنكم تخونون فلسطين...".

يقول فيصل دراج في تقييمه لشجاعة عبد القادر الحسيني وللدور التاريخي الذي لعبه في الثورة:" أعلن عبد القادر في موقفه الشجاع، إلى حدود الفرادة، عن أمور ثلاثة: تسخيف اللقب العلمي كأداة لزينة اجتماعية، تمسكت به عائلات حميدة تقليدية، كما لو كان اللقب امتداداً لهيبة العائلة أو ضرورة لها. وثانياً إقامة الفارق بين التحصيل العلمي العالي، المطلوب وطنياً، والتماس "وظيفة عالية" في أجهزة السلطة، بما يجعل من اللقب العلمي جسراً بين العائلة والسلطة. فقد أخذ بعض العائلات الفلسطينية التقليدية بالقاعدة القائلة: "من يعرف يحكم، ومن لا يعرف عليه الإذعان"، وذلك في إشارة إلى الفلاحين الذين تفشى بينهم القهر والأميّة. يتكشّف الأمر الثالث في التصور التحرري للعالم، الذي يحدّد معنى الإنسان والوطن والعلم، حيث الإنسان قوة مقاتلة، والوطن الحرّ مرجع للكرامة والوجود الإنساني السوي، والعلم طاقة محرِّرة وأداة في معركة التحرير. بحث عبد القادر عن المعرفة ولم يبحث عن اللقب، مدركاً أن لقب الإنسان يأتي من قيمه، وأن مرجعه ماثل داخله لا خارجه. ولهذا زهد بـ "الشهادة" واحتفظ بعلم "الكيمياء"، واستفاد منه في تصنيع الألغام والمتفجرات، التي اعتمد عليها أكثر من مرة في معاركه العسكرية. ولعل شغف عبد القادر في ترجمة معارفه الأكاديمية إلى مواضيع عملية . كفاحية، كما اختلافه عن "المتعلّمين التقليديين"، هو ما جعل الأوساط التقليدية، في السياسة وخارجها، لا تنظر إليه بارتياح كبير. واجه عبد القادر شكلانية الوجهاء، التي ترى في اللقب

العلمي وجهاً آخر من الوجاهة، وأكّد الحاجة الوطنية للمعرفة، التي تنفي المآرب الشخصية، الفردية والجماعية معاً".

قبل أن يغادر عبد القادر دمشق باتجاه معركة القسطل قال: "أما أنا فإني ذاهب إلى القسطل لأموت هناك قبل أن أرى ثمرة التقصير والتواطؤ. وسأعود إلى القسطل. وسأسترجعها من اليهود مهما كلّف الثمن. وسأموت هناك. وليسقط دمي على رأس عبد الرحمن عزام وطه الهاشمي وإسماعيل صفوت الذين يريدون تسليمنا لأعدائنا كي يذبحوننا ذبح النعاج".

تلك هي سيرة هذا القائد الفلسطيني الذي ظل على امتداد حياته مجاهداً من مرحلة إلى مرحلة، أسوة بآخرين من قادة الحركة الوطنية الفلسطينية. واستشهد واستشهد آخرون قبله وبعده. لكن الإنصاف للوقائع ولتاريخ حدوثها يقضي بأن نشير إلى أن للثورة الفلسطينية أبطالاً متعددين. وكان بينهم، إلى جانب الفلسطينيين بالذات، بعض العرب الذين ارتبط اسمهم بالثورة كل منهم على طريقته. وأخص بالذكر بين الفلسطينيين فؤاد نصار الذي أغفلت الكتابات عن الثورة ذكر اسمه لأسباب غير معروفة وغير مقبولة. كان فؤاد نصار من أوائل الذين شاركوا في الثورة، في المظاهرات الشعبية وفي الكفاح المسلح. وظل يشارك في الثورة على امتداد أعوامها الثلاثة (1936–1939). وبعد كر وفر واعتقال وخروج من الإعتقال ونفي وعودة من المنفى، استدعته قيادة الثورة في لبنان في أوائل عام 1939 حيث أوكلت إليه قيادة العمل المسلح في القدس والخليل بديلاً من القائد عبد القادر الحسيني الذي كان قد ذهب إلى دمشق للإستشفاء من مرض أصابه. واستمر فؤاد نصار في كفاحه حتى أواخر عام 1939، العام الذي شهد بداية الحرب العالمية الثانية وهزيمة الثورة. وكان نصار قد أصبح شيوعياً. وشكل

مع عدد من أصدقائه ورفاقه في عام 1943 "عصبة التحرر الوطني في فلسطين" التي تحولت في أواخر الأربعينات إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني، الذي انقسم بدوره إلى حزبين بعد حرب عام 1948: حزب شيوعي أردني فلسطيني بقيادة فؤاد نصار، وحزب شيوعي إسرائيلي كان من أركانه رفاق فؤاد نصار توفيق طوبي وإميل حبيبي وإميل توما وحنا نقاره وصليبا خميس وآخرون.

وكان لعبد القادر الحسيني شركاء آخرون من المناضلين العرب الذين قاموا بأدوار مختلفة. وكان من بين هؤلاء من استشهد في أول الطريق. وكان من بينهم من تابع كفاحه واستشهد في مراحل مختلفة من الثورة. وكان من بينهم من اختار له خلال الثورة وبعد هزيمتها طريقاً آخر في الكفاح من أجل تحرير فلسطين تعددت أدواته وأشكاله. وكان من أوائل أبطال الثورة من العرب المجاهد السوري عز الدين القسام الذي جاء إلى الثورة في بداياتها من رحم الثورة السورية. واضطلع بدور أساسي في المراحل التي أسست للثورة. لكنه استشهد في العام السابق على انطلاقة الثورة. وكان من بين تلك الرموز من العرب المناضل الشيوعي اللبناني عساف الصباغ الذي اقتصرت مهمته على مطاردة المهاجرين اليهود القادمين إلى فلسطين عبر لبنان. واستمر في مهمته بقيادة مجموعة من رفاقه الشيوعيين من عام 1936 حتى عام 1941، العام الذي استشهد فيه على يد قوات فيشي الفرنسية التي كانت تابعة لهتلر. وكان بين تلك الرموز أيضاً المناضل اللبناني فوزي القاوقجي الذي شارك في الثورة منذ بداياتها. وأسس في عام 1948 بالإتفاق مع الجامعة العربية جيش الإنقاذ. وانهزم جيشه مع الجيوش العربية في الحرب المهزلة التي خاضتها تلك الجيوش بقرار من حكومات بلدانها لمنع تنفيذ قرار تقسيم فلسطين. وقدمت بهزيمتها للحركة الصهيونية على طبق من فضة دولة إسرائيل على القسم الأكبر من أرض فلسطين. ومنعت الشعب الفلسطيني من إقامة دولته وفق قرار التقسيم، أو ما كان قد بقي له من أرض فلسطين بعد الهزيمة النكراء التي أطلق عليها اسم النكبة منذ

ذلك التاريخ. وكان من بين اللبنانيين كذلك المجاهد معروف سعد الذي ذهب من مدينة صيدا مع كوكبة من المجاهدين للإلتحاق بالثورة. وكان من بين اللبنانيين عدد من المثقفين الذين مارسوا أدواراً سياسية إما في الخطب التي كانوا يلقونها في الجماهير أو في تحرير المقالات التي كانت تدعو إلى الثورة. وكان في مقدمة هؤلاء المثقفين رئيف خوري صاحب كراس "جهاد فلسطين" الذي واكب فيه الثورة ابتداء من الإضراب العام. وهو الإضراب التاريخي الذي منه انطلقت الثورة وحدد له رئيف خوري ثلاثة أطوار. الطور الأول هو الذي كان البداية العفوية المربكة للثورة. الطور الثاني هو الذي، كما يقول رئيف، انتقلت فيه الثورة من العفوية إلى الوعي والتنظيم. أما الطور الثالث فكان الإنتقال إلى الكفاح المسلح.

ظلت القضية الفلسطينية منذ الثورة الأولى والثورات التي أعقبتها حتى هذه اللحظة تقدم الشهداء من القادة ومن الجماهير من دون أن تتمكن الحركة الوطنية الفلسطينية من وضعها على طريق الحل لأسباب تتصل بها وبسياسات قادتها ولأسباب خارجة عن إرادتها تتصل بالنظام العربي الضعيف والمتواطئ وبالدعم الذي يقدم لإسرائيل من الدول الكبرى. والحل الذي ينشده الشعب الفلسطيني لقضيته يتمثل بإقامة الدولة الفلسطينية الكاملة السيادة على جزء من أرض فلسطين، الذي صار يعرف بحدود عام 1967.